شـــلر

للكاتب الكبير توماس كارليل

ترجمة الأستاذ يوسف عبد المسيح ثروت

— ٦ —

إننا نجد شلر فى تصادمه مع مواطنيه المثل الأعلى فى سمو الخلق، وهذا السمو هو الرابطة الوحيدة التى كانت تشده بمجتمع زمانه، وقد أظهر كل النبل مع أعدائه وأصدقائه على حد سواء. على أنه لم يدخل قط فى مجادلات وترهات عصره. وبالرغم من مشاهدته وأسفه على إسفاف الأدب فى زمنه لم يشهد حربا مكشوفة عليه، وإنما نراه يلمح إلى ذلك عن بعد كما هى الحال فى كتابات (ملتون) ولذا نراه لا يتطرق إلا إلى أسماء عدد قليل من معاصريه، لأنه لم يقصد الناس فى هجومه وإنما كان يقصد الأفكار المموجة والآراء الفجة. وفى كتابه (دراسة عن برغر) — هذا الكتاب الذى أسهب الناس فى الحديث عنه وعلقوا عليه شتى التعليقات، والذى أنزل أشد الضربات فى الشاعر المسكين (برغر). إلا أن شلر لم يقصد منه إثارة أى عداء ضد برغر — بل على العكس حاول أن يظهر فيه احترامه لفن الشاعر وتجربة لفهمه، لأنه لم يعن بالمنازعة مع برغر أو أى شخص آخر كما لم يقصد إلى كسب رضا الجمهور، وقد كان حائزا عليه بدرجة عالية لأنه لم يقدر هذا الرضا. وقد قال فى هذا المعنى فى فقرة جليلة يعرفها القراء الإنجليز «إن الفنان فى الحقيقة هو ابن عصره، ولكن وا رحمتاه له إن هو أصبح تلميذ هذا الفكر، فخير له لو اختطفته يد إحدى الآلهة وهو لا يزال رضيعا من حضن أمه لتربيه فى عصر آخر أحسن فيشب ويبلغ مبلغ الرجال تحت سماء الإغريق القصية، وحالما يدرك هذا المبلغ فله أن يرجع إلى بلاده غريبا فى سيمائه ليس ليسرها بوجوده، بل ليطهرها كأحد أبناء أغاممنون الرعيبين». وعلى كل، فشلر لم يكن عنده أثر من آثار الغرور أو حتى الكبرياء، لأن شعوره الذاتى المتواضع كان أهم ميزة من ميزات عبقريته التى كانت ضمنية غير ظاهرة عليه، فلم يكن للمقت أو للغضب محل فى نفسه اللهم إلا ضد الخرافات والإسفاف، وعنده تصبح الكراهية شيئا مقدسا، كما أن الزهو المالى لم يكن له أثر فى نظرته، أما تجهمه فكان يشبه تجهم أبولو الذى كان يقضى على الأفعى بنظرة واحدة من نظراته[1]. وبكلمة أخرى يمكننا أن نقول فى شلر ما نقوله فى أفراد قلائل من أى قطر كان: لقد كان خادما من خدام معبد الحق وقد قام بمثل هذا الواجب خير قيام، وليكن هذا ذكرى لنا على الدوام فى عصرنا هذا، وهذه الذكرى وحدها كافية للاشادة به. ولقد اتفق سلوك شلر العقلى مع سلوكه الأخلاقى اتفاقا دائما؛ فكان بسيطا فى عظمة، ساميا فى عدم تكبر، تقيا فى عدم إسفاف، غيورا فى عدم حسد. وكانت الحساسية النبيلة والمشاركة المخلصة مع الطبيعة فى جميع تقلباتها تنعشه وتبعث فيه ميت الرجاء؛ إلا أن ذلك لم يكن مدعما بقابلية إبداعية. ولكن الطبيعة بما فيها من معنى وجمال كانت محدودة بصور قليلة لدى بصيرته، وكان اهتمامه يتركز فى نوع خاص من الصور، هى أقرب إلى العاطفة القاسية الشجية، وهذا ما كان يمكنه أن يمثله خير تمثيل كشاعر وكفكر. ويمكننا أن نقول: إن موسيقاه كانت موسيقى سماوية حقة، ولكن فى نغمات رتيبة غير متنوعة وفى إيقاع بسيط، ولكن الانسجام فى الترتيل مفقود فيها. ولا ننكر بأن شلر فى أيامه الأخيرة، على الأقل، أدرك أسلوبا شعريا باهرا صافيا فى المجالى الخالدة من الفن، ولكن هذه الموهبة ظلت جزئية، لأنها كانت نتاجا لبعض قابلياته المكدودة أكثر من كونها نتاجا ذاتيا لطبيعته الكلية، فعلى قمة المحرقة يوجد لهيب أبيض ولكن المواد ليست كلها ملتهبة إذا لم نقل غير مشتعلة. لا بل يظهر لنا أن الشعر إجمالا لم يكن موهبته الرئيسة، كأن عبقريته كانت منهمكة فى التأملات الفلسفية والبيانية أكثر من الشعر. وإلى النهاية كانت هنالك خشونة فيه مما جعل عدم انصهاره فى بودقة الشعر أمرا لا مفر منه. وهكذا لم تكن عبقريته قيثارة (بولية) تعزف عليها الرياح كما تشاء لتصنع لحنا حرا، بل آلة موسيقية علمية إذا ما عزفت عزفا فنيا أنتجت نغمات بديعة ولو بصورة محدودة. ومن المحتمل أن جزءا يسيرا من مواهبه انكشف لنا، لأننا يجب أن نعلم بأنه لم

(١) حياة شلر

يحظ بما حظى به إلا بعد جهد جهيد وتعب شديد ، وأنه استدعى إلى العالم الآخر وهو لما يبلغ منتصف العمر . وعلى كل حال ، فنحن على قدر ما نجد فيه من المواهب مجبرون على الاعتراف بأن أعم هذه المواهب كان هذا الإدراك العميق الدقيق الذى نجده فى كل مؤلفاته . لقد كان لديه خيال ذهنى واسع الأفق وقابلية فلسفية إدراكية عميقة ، ومع ذلك فإن البساطة وعدم الشمول ظاهران فى كل هذا

وكان شلر ينظر إلى الأعالى بدلا من أن يحدق فيما حوله . وكان يهتم اهتماما خاصا بالأمور الفلسفية البعيدة والتأملات الفنية وقيمة الإنسان ومصيره . ولم يعن بمصالح الإنسان وأعماله الآنية . ومع ذلك فهذه الأخيرة — كما تظهر لنا — ذات قيمة لا محدودة ، لأن أبسط مظهر من مظاهر الطبيعة ، وخصوصا الطبيعة الحية ، ما هو إلا نموذج ومطلع (٢) من مطالع الروح غير المرئية التى تعمل فى الطبيعة . وليس من شئ تافه فى الكون ، بل إن أصغر شئ يمكن أن يعتبر نافذة للنظر من خلالها إلى اللامحدود . ولم ينظر شلر كمفكر وكشاعر أكثر من نظرة عابرة إلى مثل هذه الأشياء ، سواء كان ذلك فى مناقشته أو فى عرضه للطبيعة وتصويره لها . فالشئ العادى ظل عاديا بالنسبة إليه ، وإذا نظر إليه نظرة مثالية فذلك بصورة ميكانيكية ليس للوحى فيها أى مكان ، وليس عن طريق التطلع الفلسفى الشعرى ، هذا الطريق الذى يفتح مجاهل الجمال فى كل صفة من صفاته ، بل عن طريق استنتاج هذه الصفات بانتقاء ما هو وضاء بارز منها وترك الباقى تذروه الرياح

وفى هذا يختلف شلر اختلافا بينا عن الشعراء العظام وخصوصا عن معاصره العظيم جوته ، وهذه العظمة الفكرية — على ما هى عليه من قيمة وأهمية — عظمة بسيطة تسحر البصر لأول وهلة ولكنها لا تلبث أن تفقد الكثير من جلالها . فليس النظر إلى المجردات العلوية صعبا بمقدار الصعوبة التى نواجهها فى النظر بعطف إلى مشاكلنا الآنية ، والحكيم هو من يرشدنا ويساعدنا فى أمور حياتنا اليومية ، وقد يجوز أن يكون حكيما كذلك من يرشدنا للنظر إلى الحقائق القديمة نظرة أكاديمية شكلية ، ولكننا نريد أن نرى الحكمة فى أشكالها المكشوفة البينة ، لأننا قد نجد فى الأمثال كثيرا من الحكمة الواقعية أكثر مما نجد فى النظم الفلسفية والمدارس الأدبية . فكتاباته البكرة وكل كتاباته تقريبا تمتاز بهذا الترف الأرستقراطى وهذا الزهو المجرد . فهو إما أن يكون تجريديا أو نظاميا فى تأملاته أو نراه متعلقا ببعض الأفكار المترف بها ، غير عابئ بالنظر إلى ما يحيط به أو بالنظر إلى نهر الحياة المتعدد الألوان ، وإذا نظر إلى ذلك فمن خلال كوة ضيقة . ففلسفته فى التاريخ تستند على اعتبار كمال الإنسان نتيجة من نتائج التنظيمات الاجتماعية والمؤسسات الدينية ، يستبين ذلك فى شعره ، فهو يدور فى نطاق الأمور القديمة المعروفة من أمثال جنون الحب ، والعظمة العاطفية ، والحماسة فى الدفاع عن الحرية وما شابه . نجد ذلك فى كتابه (دون كارلوس) ، هذا الكتاب الذى يمكن اعتباره مرحلة انتقال ونقطة تحول بين فترتين من حياته :- البكرة والمتأخرة ، وفى هذا الكتاب نجد البطلة المحبوبة (بوزا) تظهر محلقة فى الأجواء ، مضيئة صافية نقية وباردة وجافة كالمنارة البحرية . وقد عرف شلر نفسه بأن العظمة لا تكمن هنا . وبجهد لا كلل فيه ولا ملل تمكن شلر من التخفيف من غلواء تحليقه وتوسيع رقعة منطقته الأرضية بالهبوط إليها ، وقد حدث ذلك بنجاح منقطع النظير ، كما تشهد بذلك أشعاره وأكبر دليل على ذلك قصيدته (نشيد الأجراس) ، وهى قصيدة عظيمة بلغت مبلغ الإعجاز فى بلاغتها وفى عرضها . أما مأساته (وليم تيل) . وهى آخر مؤلفاته — فهى فى أسلوبها وروحها من أحسن ما كتب فى الدراما . أما قصوره الوحيد — كما قلنا سابقا — فهو عدم تنازله واختلاطه بالمجتمع ، ومما له علاقة وثقى بهذا القصور سببا ونتيجة ، هو فقدانه لروح المزح واللاطفة ، هذه الروح التى تعبر عن الشاعر العامة ، فينظمها الشعراء شعرا عذبا مستساغا ، فالشاعر المازح يرى الحياة العامة وحتى الوضيعة منها بمنظار المرح والحب ، لأن كل شئ موجود له سحره الخاص

الكلام صلة

يوسف عبد المسيح ثروت

(٢) مطالع اصطلاح صوفى وهو بمعنى الانكشاف الروحى لإنسان محاط من قبل واجب الوجود